

الفائق في غريب الحديث

قالوا : يا رسول الله : أفَرَأَيْتَ وهو مَنْ يَمُوتُ وهو صَغِير ! قال : إنَّ الله أعلم بما كانوا عاملين . بِإِذْنِ الْفِطْرَةِ تَدُلُّ عَلَى النُّوعِ مِنَ الْفِطْرِ ; كَالْجِلْسَةِ وَالرَّكْبَةِ . وفي اللام إشارة إلى أنها معهودة وَأَنَّهَا فِطْرَةٌ الله التي نطق بها قوله تعالى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : فَأَقِيمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ; فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ; لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَالْفِطْرُ : الْإِبْتِدَاءُ وَالْإِخْتِرَاعُ . ومنه حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما كنتُ لَأَدْرِي مَا فَطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى احْتَكَمَ إِلَيَّ أَعْرَابِيَّانِ فِي بَيْئَرٍ ; فقال أحدهما : أَزَلَا فَطَرَتْهُمَا ; أي ابْتَدَأَتْ حَفَرَهَا . والمعنى أنه يُؤَلِّدُ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجِبِلِّ ; وهو فِطْرَةٌ الله وكونه مُتَّهِيَّئاً مُسْتَهْدِفاً لِقَبُولِ الْحَنِيفِيَّةِ طَوْعاً لَا إِكْرَاهاً وَطَبْعاً لَا تَكَلُّفاً لَوْ خَلَقَتْهُ شَيْطَانٌ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَمَا يَخْتَارُهُ لَمْ يَخْتَرْ إِلَّا إِيَّاهَا وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى جَنْبِ سَوَاهَا . وضرب لذلك الْجَمْعَاءَ وَالْجَدْعَاءَ مثلاً يعني أن البهيمة تُؤَلِّدُ سَوِيَّةَ الْأَعْضَاءِ سَلِيمَةً مِنَ الْجَدْعِ وَنَحْوِهِ لَوْلَا النَّاسُ وَتَعَرَّضُ لَهُمْ لَهَا لَبَقِيَ كَمَا وُلِدَتْ وَقِيلَ لِلْسَلِيمَةِ : جَمْعَاءَ لِأَنَّ جَمِيعَ أَعْضَائِهَا وَافِرَةٌ لَمْ يُنْذَقْ قَاصٌّ مِنْهَا شَيْءٌ . وفي معناه حديثه A : يقول الله تعالى : إِنَِّّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَدَلْتَهُمُ الشَّيَاطِينَ عَنْ دِينِهِمْ ; وَجَعَلْتُ مَا نَحَلْتَهُمْ مِنْ رِزْقٍ فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ فَحَرَّمُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينَ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ . يعني البحائر والسُّبُوبَ . وقوله A : بما كانوا عاملين : إشارة إلى تَعَلُّقِ الْمَثُوبَةِ وَالْعُقُوبَةِ بِالْعَمَلِ ; وَأَنَّ الصَّغَارَ لَا عَمَلَ لَهُمْ ; وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ ; وَأَنَّ الله يجازي الصغار كفاء ما عملوا ; وقد عَلَّمَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا يُجَازُونَ بِهِ